

سورة الإسراء

﴿الآيات: 18 - 29﴾

الدرس

6

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف مقاصد الناس بأعمالهم.
- 2- أن أدرك جزاء من يعمل للدنيا أو الآخرة.
- 3- أن أخلص في أعمالي لتحظى بالقبول يوم القيامة.

تمهيد

بعد أن ذكر المولى جل وعلا أن مصير الإنسان مرتبط بعمله، بين في هذه الآيات أن الناس في الدنيا فريقان، فريق يريد بعمله الدنيا ومنافعها وملذاتها وينسى الآخرة، وفريق يريد بعمله الآخرة ونعيمها ويعتبر الدنيا طريقا لها، فيبارك الله له في عمله ويجعله عملا مشكورا مأجورا. ولذلك فإن التفاضل بين الناس إذا كان في الدنيا بالمال والجاه، فإنه في الآخرة يكون بالدرجات في الجنة، وذلك أكبر وأفضل.

فمتى يكون عمل الإنسان وبالا عليه؟ وما هي شروط العمل المنجي لصاحبه؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿مَرَكَا يَرْيَدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ وَيَدْعَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَنَّةً يَصْلِيهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا ۝ 18 وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ 19 كَلَّا نُمَدِّ لَهَؤْلَاءِ وَلَهَؤْلَاءِ

مِنْ عَهْدِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَهْدُ رَبِّكَ قَهْضُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْ تُضْرَكَيْفَ بَضَلْنَا بَعْضَهُمْ
عَلَى بَعْضٍ وَلَا خِرْلًا أَكْبَرًا رَجُلٍ وَأَكْبَرُ تَقْضِيَّةٍ ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
- آخَرَ فَتَفْعِدَ مَذْمُومًا قَهْذُولًا ﴿٢٢﴾ [سورة الإسراء: 18 - 22]

الفهم

الشرح :

- الْعَاجِلَةُ : الدار الدنيا.
- يَضْلِلُهَا : يقاسي حرها.
- مَذْهُورًا : المدحور المهان المبعد المذل المسخوط عليه.
- قَهْضُورًا : ممنوعاً عن يريده.
- قَهْذُولًا : المخذول الذي لا ينصره من يحب أن ينصره.

استخلاص المضامين :

- 1- ماذا يقصد الناس بأعمالهم؟
- 2- فيم كانت المقارنة بين الناس في الآيات؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: الناس بين من يريد بعمله الدنيا ومن يريد الآخرة:

بين الله عز وجل في هذه الآيات أن جزاء الناس مرتبط بنواياهم، فقال: ﴿مَرَكَانِ يَرْيَدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ، وَفِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾: أي: من كان يريد الدنيا العاجلة ولا يعتقد غيرها، ولا يؤمن بالآخرة، فهو يفرغ أمله ومعتقداته للدنيا، فإن الله يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء. فيكون الفاعل هو الله

على قراءة من قرأ (نشاء) بالنون. أو يكون الفاعل هو المرید على قراءة من قرأ (يشاء) بالياء. وقيل: الضمير في يشاء يعود على الله حتى على قراءة الياء وهو من باب الالتفات، فتكون قراءة النون والياء سواء. قال أبو حيان رحمه الله: "ولا بد من تقدير حذف دل عليه المقابل في قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالتقدير: من كان يريد العاجلة وسعى لها سعيها وهو كافر. وقيل: المراد من كان يريد العاجلة بعمل الآخرة كالمنافق والمرائي والمهاجر للدنيا والمجاهد للغنيمة والذكر، كما قال عليه السلام: "فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه" [صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ...]. وقال عليه الصلاة والسلام: "من طلب عمل الدنيا بعمل الآخرة فما له في الآخرة من نصيب" [مسند القضاعي، 1/293]، وقيل: نزلت في المنافقين وكانوا يغزون مع المسلمين للغنيمة لا للثواب " [البحر المحيط، لأبي حيان: 28/7].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْليقًا مِّنْهُ مَوْماً مَّذْهُوراً﴾ أي: ثم يجعل الله جهنم لجميع مریدی العاجلة على جهة الكفر، من أعطاه فيها ما يشاء ومن حرمه.

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة: الدوام والخلود في جهنم، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْليقًا﴾، والإهانة والاحتقار، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿مِّنْهُ مَوْماً﴾. والبعد الطرد من رحمة الله دائماً، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿مَّذْهُوراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ المعنى: ومن أراد الآخرة إرادة يقين بها فأطاع الله وطلب ما يرضيه، وهو مصدق بالله وبرسالاته وبثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُوراً﴾ أي: فأولئك يشكر الله سعيهم ولا يشكر الله عملاً ولا سعياً إلا أثنى عليه وغفر بسببه، بدليل قول النبي ﷺ في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش "فشكر الله له فغفر له" [الموطأ للإمام مالك، كتاب الجامع، باب جامع الطعام والشراب]. وهكذا فقد اشترط لهذا الجزاء أموراً ثلاثة:

1 - أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم الآية: 38]، وجاء في الحديث: "إنما

الأعمال بالنيات" [صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ...]. ولأن المقصود من الأعمال استتارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته، وهذا لا يحصل إلا إن نوى العامل بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته.

2 - أن يعمل العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات، لا من الأعمال الباطلة والأفعال المحرمة. قال ابن عطية: "ثم شرط في مريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه".

3 - أن يعمل ذلك وهو مؤمن؛ لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب أن يتقدمها الإيمان، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط. وهذا هو الشرط الأعظم في النجاة فلا تنفع إرادة ولا سعي إلا بحصوله. [مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي: 317/20 (بتصرف)]

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوي لا يحظر على أي من مريدي العاجلة ومريدي الآخرة، فقال: ﴿كَلَّا تُمَدِّ قَوْلًا ۖ وَقَوْلًا ۖ مِنْ عَهْدِ رَبِّكَ ۖ وَمَا كَانَ عَهْدُ رَبِّكَ قَبْضًا﴾ انتصب ﴿كَلَّا﴾ بـ "نمد". والتتوين عوض من المضاف إليه، أي: كل واحد من الفريقين. وأمددت الشيء إذا زدت فيه من غير نوعه، ومددته إذا زدت فيه من نوعه. وقيل: هما بمعنى واحد، يقال: مد وأمد. و﴿قَوْلًا ۖ وَقَوْلًا ۖ﴾ بدل من قوله: ﴿كَلَّا﴾ فهو في موضع نصب.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَهْدِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد من الطاعات لمريدي الآخرة والمعاصي لمريدي العاجلة، وروي هذا التأويل عن ابن عباس. ويحتمل أن يريد بالعطاء رزق الدنيا، وهذا هو تأويل الحسن البصري وقتادة، أي: إن الله تعالى يرزق في الدنيا مريدي الآخرة المؤمنين ومريدي العاجلة من الكافرين، ويمدهم بعطائه منها، وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة. ويتناسب هذا المعنى مع قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَهْدُ رَبِّكَ قَبْضًا﴾، أي: إن رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر، وقلما تصلح هذه العبارة لمن يمد بالمعاصي التي توبقه.

ثانياً: معيار التفاضل بين الناس في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿أَنْهَضْكَ كَيْفَ قَضَّيْنَا بِعَظْمٍ عَلَّيْكَ بَعْضٌ﴾ يحتمل تأويلين:

قيل: انظر يا محمد إلى تفضيل الله لبعض على بعض في الرزق، ونحوه من الصور والشرف والجاه والحظوظ، وعلى هذا فإن العطاء في التي قبلها هو الرزق.

وقيل: انظر يا محمد إلى تفضيل الله قوما بأن أعطاهم الطاعات المؤدية إلى الجنة، وأعطى آخرين الكفر المؤدي إلى النار، وهذا قول الطبري.

فعلى التأويل الأول: النظر في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين ومن الكافرين.

وعلى التأويل الثاني: النظر في تفضيل فريق على فريق.

ثم أخبر عز وجل أن التفضيل الأكبر إنما يكون في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ ليس في اللفظ من أي شيء هو أكبر، لكنه ظاهر في المعنى والتقدير: أكبر درجات من كل ما يضاف بالوجود أو بالفرض إليها. وكذلك الأمر في قوله: ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾؛ لأن الناس متفاوتون في الآخرة، فمنهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى في الجنة ونعيمها وسرورها. ثم أهل الدرجات متفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات متفاوتون، فإن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الحديث: "ذر الناس يعملون فإن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوق ذلك عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتهم الله فسلوه الفردوس" [سنن الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة].

ثم أشار تعالى إلى ما به تنال درجات الآخرة من البراءة من الشرك، ومن الاعتصام بالإيمان وشعبه، فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا﴾ الخطاب في الآية للرسول ﷺ، والمراد به جميع الخلق. والذم هنا لاحق من الله تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عودا أو حجرا أفضل من نفسه، ويخصه بالكرامة وينسب إليه الألوهية ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه. والخذلان في هذا يكون بإسلام الله له وعدم نصرته.

ثالثاً: مقاصد الآيات:

تهدف الآيات إلى تحقيق مجموعة من المقاصد التربوية، منها ما يأتي:

- التأكيد على توحيد الله عز وجل والنهي عن الشرك به في ألوهيته وعبادته؛ لأن الله لن ينصر من أشرك به غيره، وسيخذله ويتركه لمعبوده الذي لا ينفع ولا يضر. وفي ذلك دعوة إلى تحرير الإنسان الذي كرمه الله تعالى، وأنعم عليه بنعم كثيرة ليوحد الوجهة في عقيدته وعبادته.
- أن رزق الله وعطاءه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين والمطيعين والعاصين، شريطة السعي والعمل، فلا يكون عطاؤه محبوساً ممنوعاً عن أحد، ولو كان كافراً أو عاصياً، ولا يرتبط التفاوت في الرزق بالإيمان والكفر؛ ولذلك فلا يستدل بما يكسبه الإنسان في الدنيا على رضا الله تعالى؛ لأن الدنيا قد تحصل للإنسان مع سوء العاقبة.
- أن التفاضل لا يكون بما يملكه الناس في الدنيا من مال أو متاع، وإنما يحصل التفاضل الحقيقي بما ينتفع به الإنسان في آخرته فينال به الدرجات العليا في الجنة، وهو الأعمال الصالحة التي يقدمها الإنسان لآخرته.

التقويم

- 1 - ما هو جزاء من اقتصر في عمله على طلب الدنيا ونسي الآخرة؟
- 2 - ما هو معيار التفاضل بين الناس في الدنيا والآخرة؟
- 3 - ما هو مصير من أشرك بالله غيره؟

الاستثمار

أخرج ابن ماجه في سننه أن النبي ﷺ قال: " مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُ. وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ صَاغِرَةٌ ".

[سنن ابن ماجه، أبواب الزهد، باب الهم بالدنيا]

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

1 - أوضح العلاقة بين مضمون الحديث والآيات موضوع الدرس.

2 - متى يكون طلب الدنيا مذموماً ؟

الإعداد القبلي

أتأمل الآيات: 23 - 25 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - بحث عن مدلولات العبارات الآتية: **وَفَضِّلْ - ائْتِ - وَلَا تَنْفَرُفَمَا - فَوَلَّا كَرِيماً - لِلْأَوَّابِينَ**.

2 - أبحث عن مظاهر بر الوالدين في حياتهما وبعد مماتهما.

3 - أوضح معنى قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لِفُجَاءِ الْجَنَاحِ النَّالِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ مع بيان ما فيه من نكتة بلاغية؟